من شؤون المسلمين والعالم

ثورة العمال في (دولة العمال)

إنّ التطورات الداخلية في بولندا خلال الشهور القليلة الماضية أعمق مغزى وأبعد نتائج من مجرّد تكوّن نقابة مستقلة للعمال ، وتغييرات واسعة لأشخاص السلطة الحاكمة ..

حركة العمال في بولندا يمكن اعتبارها بحق (ثورة) ، ولكنها ثورةٌ من نوعٍ جديد ، فلا هي ثورة طبقة كالثروة الفرنسية ، ولا (ثورة) حزب كالثورة البوليشفية ، ولا ثورة شعب كالثورة الإسلامية في إيران .. بل هي ثورة اتخذت لنفسها شكلاً جديداً أشبه بالزحف والامتداد ، ووجهاً جديداً ، أقرب معالمه ظهوراً للعيان هو الإنسان كإنسان ..

وليس في الإمكان في حدود مقال قصير استيعاب الأسباب والأبعاد واستقراء النتائج ، إنما يمكن تسجيل بعض الملاحظات التي تهمّنا كمسلمين لفهم واقع عالمنا وعصرنا من حولنا

الملاحظة الأولى :

احتكر الشيوعيون على الصعيد السياسي الواقعي دعوى أنهم بنظريتهم الماركسية وحكمهم التطبيقي هم (العمال) ، وديكتاتوريتهم هي ديكتاتورية العمال ، وجاءت ثورة العمال في (دولة العمال) بولندا لتكشف بما لم يعد يمكن ستره بأساليب الدعاية المختلفة –ولا سيما في البلاد النامية ، ومعظمها إسلامية– أن التناقض الأعظم القائم داخل بلدان المعسكر الشيوعي في الوقت الحاضر قائم مع العمال الذي يحكم باسمهم .. كشفت أن العامل لا يملك مجرّد الرأي الحرّ فضلاً عن ممارسة الحكم ، ولا الحق في المشاركة بسنّ القوانين المتعلقة به فضلاً عن ممارسة الديكتاتورية على سواه من فئات الشعب .. كشفت أن العامل في البلد الشيوعي لا يستطيع الحصول على حقوقه إلاّ بمخاطرته –كما فعل في بولندا– بنفسه في مواجهة صاحب السلطة الحقيقية .. أي الحزب الذي يجمع سائر الامتيازات مع سائر السلطات في أيدي فئة قليلة من المسلمين ..

الملاحظة الثانية :

اقترنت في كثير من الأذهان بفعل الدعاية الشيوعية الواسعة النطاق (العدالة الاجتماعية) بـ (النظرية الماركسية) .. وأصبح الاعتقاد الساري عند كثير ممّن لا يحيطون علماً بحقائق الأوضاع في المعسكر الشرقي .. أن المساواة الاجتماعية فيه قائمة أو تكاد ، حتى خصوم الماركسية كانوا يهاجمون تميّز (الطبقة العمالية) على سواها ويقولون إن العدالة الاجتماعية مفقودة عند بقية فئات الشعب فحسب .. وقليلاً ما وجد التصديقَ القول إن فئة قليلة في البلد الشيوعي هي صاحبة الامتيازات دون سواها .. وجاءت ثورة العمال في بولندا لتكشف هذه الحقيقة كما لم يفعل أيّ

حدثٍ من قبلها ، فإذا ببعض المتسلّطين على الحكم يتساقطون ، وتنكشف بسقوطهم حقائق مذهلة عمّا يملكه الواحد منهم بأساليب غير مشروعة من قصور ومزارع وشركات وبواخر فاخرة وسوى ذلك ممّا يذكّر بالظلم الاجتمـــاعي القائم في البلدان الرأسمالية .. ويؤكد أن الدعامة الثانية للدعاية الشيوعية بعنوان العدالة الاجتماعية .. ليست أكثر من دعاية تمارس في البلدان النامية خاصة حيث يسود الظلم أيضاً لجرّ الناس فيها من ظلم إلى آخر وليس لتخليصهم مـــن الظلم وتطبيق العدالة الاجتماعية بمفهوم الكلمة الحقيقي ..

الملاحظة الثالثة :

من المعروف أن الاتحاد السوفييتي هو المسيطر في البلدان الشيوعية الشرقية ، وكانت هذه السيطرة مـــن الناحيـــة الواقعية الغنيمة التي حصل عليها من الحرب العالمية الثانية بقبول المعسكر الغربيّ وموافقته ، وكان يقـــال باســـتحالة حدوث تغيير وراء الستار الحديدي إلاّ بموافقة موسكو .. ومع ذلك فالصورة السائدة في بلادنا الإسلامية عند عامّـــة الناس هي أن الدول الشيوعية الشرقية مستقلّة ، تملك أمورها بنفسها ، فجاءت ثورة العمال في بولندا لتكشف عـــن حقيقتين هامتين ، أولاهما أنه لا توجد دولة مستقلة في الشرق ، فالحكم القائم في بولندا مضطر إلى وضـــع مجلـــس السوفييت الأعلى وحلف وارسو في كل خطوة يخطوها ليس على صعيد العلاقات الخارجية فحسب ممّا يحـــدّ مـــن استقلاله ، بل وعلى صعيد تعامله مع شعب بولندا نفسها ممّا يحدّ من سيادته الداخلية .. ولا تزال هذه الحقيقة قائمة في بولندا نفسها ، أما الحقيقة الثانية فهي أن تغيير الأوضاع ممكن رغم موسكو وقوتها العسكرية وتسلّطها الـــسياسي على السواء .. وهذا هو الجديد في ثورة العمال ببولندا .. أسلوب الثورة الذي لم يكن يوضع في الحسابات الـــشرقية ولا الغربية على السواء .. لا سيّما وأنها ثورة لم تستخدم قوة السلاح .. بل قوة الكلمة في بلد لا حرية للكلمة فيه ، وقوة التنظيم في بلد المخابرات جزء من تكوينه وضمانات استمرار الحكم فيه ..

ومع ذلك .. فالأحداث لا تزال مستمرة ، واحتمال الصدام الدامي ما زال قائما .. ولكن سواءٌ نجحت الثورة في تثبيت التغييرات الجديدة وتوسيع نطاقها أم قضي عليها بقوة السلاح كما كان في المجر وتشيكوسلوفاكيا من قبـــل ، يبقى من نتائجها المبدئية المؤكدة ، أنها قضت على الأسس النظرية وكثيرٍ من الصيغ التطبيقية للـــسيطرة الماركـــسية والمبادئ الشيوعية .. وتضاعفت إمكانية كشف كثيرٍ من حملات التضليل الدعائية التي تمارس داخل بلداننا الإسلامية لصالح الشيوعية والمعسكر الشرقي ، مع تقديم الأدلّة والبراهين القاطعة ليس من واقع الشيوعية الرهيـــب في بلادنـــا الإسلامية مثل أفغانستان واليمن الجنوبي ، وإنما من واقع الشيوعية الرهيب وراء الستار الحديدي أيضا ..